خصائص العقلية الإسلامية في الإبداع الفني

بقلم / محمد رشدي عبيد*

١ - إن العمل الفني الإسلامي يشترك العقل في إنشائه شكلاً ومضموناً، لكن أي عقل؟ إنّه العقل الإسلامي المتميز الرحب الوسيع، وليس العقل الداجن، الأسير للمألوف، الخاضع للداني القريب، المقصوص الجناح، العاجز عن التحليق، في عوالم الخيال المبدع، العقل الإسلامي هو العقل الثائر على التقليد الرتيب، الميّال إلى النقد والتجديد فلطالما وضع القرآن العقلانية في مواجهة الخضوع التقليدي، للأنماط الرتيبة المألوفة في عالم الفكر والحسّ والتجربة والخيال.. ﴿أفلا يعقلون﴾[1].

٢- والعقل الإسلامي هو الأفضل، والأكثر حيوّية، والأشد تقبّلاً واستيعاباً وتمثلاً للحقيقة الشاملة، من العقل التقليدي الغربي المتأثر بفلسفة (أرسطو)، الذي كان يتصور العالم ساكناً، ويرى أنّ ما أمامه من مسلمّات (عقليّة) هي وحدها الحقائق الثابتة الخالدة، وأن ما سواها من قناعات الروّح، وتمنيات الخيال، وتوجهات الوجدان، إنما هي أضغاث أحلام... ولم يدْرِ هذا الفيلسوف أن معرفة الإنسان للحقيقة في حالة صيرورة تأريخية، دائبة النمو والتجدد والتغير، وأن وراء هذه الصيرورة والتنامي مع العقل التجريدي جيشان العاطفة وتوقها وحبها لكل جديد، وتطلّع الخيال بالشعور النقي، بالاستلهام الصادق، بالتلقي من فوق عن طريق الوحي (للأنبياء)، بالتقوى وحساسيّة الضمير نحو مسألة الخير والحق.

رؤى صادقة

...وبكشف الرؤى الصالحة والصادقة.. وكلّ هذه المصادر المعرفية محددة، أو مشار إليها في القرآن والسنّة واجتهادات الروّاد.

٣- والمعقول الإسلامي ليس معقول زمان ومكان معينين، بل هو المعقول بالطموح الإنساني اللامحدود للمعرفة، بالبصيرة النفاذة المصرّة على هتك أستار الواقع الكثيف، لمعانقة الحقيقة الكامنة فيها، بالخيال المتعمّق الوثّاب، الذي يشتد في تحليقه ورفرفته، توقاً إلى عالم أفضل، يتحرر فيه الإنسان من أحكام الضرورة، والتعلقّات الضاغطة.

ولا شك أن العقل الإسلامي بصيغته هذه سيثري الفن، لأنه يجرّىء الفنان على ارتياد عوالم جديدة، ولا يثبطه أو يجمده عند نقطة المعقولات الوقتية الشائعة، خاسئاً حسيراً، بحجة أن ليس في الإمكان أبدع مما كان، أو بعذرٍ طالما تحجج به الراسخون في قيود المعقول التقليدي: وهو أن أي تصور جديد للفن شكلاً ومضموناً إنما هو عصيان ومخالفة لقرارات العقل المتلبس بالعرف المتغير.. وهكذا يطرح الفن الإسلامي (الجديد) دائماً، فإما أن يكون فيه خيرٌ عميم إذْ يتغير به واقع الجمهور الفني والحياتي نحو الأحسن، أو يأتي غثاً ضعيفاً مادة أو صورة، فيموت ويندثر ويستريح منه الجمهور والفنان وتبقى عبرته ماثلة في الأذهان!

٤- والعقل الإسلامي بعد ليس عقلاً طبقياً محصوراً بين أطباق القيم المادية والطبقية، واعتباراتها المغلقة، وتفاعل هذا العقل مع الإبداع الفني سيطبع هذا الإبداع بطابع إنساني متميز غير منحازٍ.

تفاعل العقل الإسلامي مع الإبداع الفني يطبع الناتج بالإنساني غير المتميز.

ولا يكون غرض هذا الإبداع إلاّ أن ينفتح الإنسان على حقيقة وجوده، ويضع يده على مكامن قوته ومعالم أصالته، ويكفر بكل الحواجز المصطنعة، التي تحول بين معانقة الإنسان لأخيه وتعاطفه معه، نحو بناء مستقبل أفضل يتحقق فيه للإنسانية المزيد من تطلعاتها الخيّرة نحو السلام والعدل والحرية، وتوفير الخيرات المادية والروحية لها.. إن العقل الإسلامي الفني لا يعرف الانحياز إلاّ إلى الحق الخالص، وإن كان لا يبخل أن يلقي أضواء مركزة على الشرائح الاجتماعية والفئات البشرية الأكثر حرماناً وانسحاقاً، وضعفاً، وحيرة، وجهلاً، والتصاقاً بقاع العتمة، يضيء مشاعرها، ويثري أرواحها، ويناغي عواطفها، ويبهج أحاسيسها، بما يقدمه لها من زاد، يعينها على الانفلات من جذب القاع، وشد النقص في الروح والنفس، والحسّ والعقل.

ضيق أفق... لماذا؟

في مقابلة العقل الإسلامي الرحيب الأفق، المتجرد التوجه، لم يبرز العقل التقليدي الغربي إلاّ ضيقاً، محدوداً، ومنحازاً. لذلك خلق تدخله في الفن معارضة شديدة، وقد كان التوجه الديني من أشد المعارضين، لكن النجاح لم يحالفه، ولم يكتب لفنه الخلود، وقد يكون سبب إخفاقه كثرةُ التهاويل والغرائب وخارقات العقل، التي تميزت بها، المسيحية الداعية إلى توظيف الفن لخدمة الدين من نحو: حلول الله (تعالى) في الإنسان، والخطيئة الأزلية التي لا تستسيغها الفطرة الإنسانية النقية الكريمة..، وقد يكون سببه التصور الكنسي لعصمة القدّيسين وتعاليهم عن

(*) أديب وباحث كردي عراقي، نشرت له عدد من الدراسات والأبحاث والأعمال الإبداعية في عدد من الصحف والمجلات العربية والإسلامية.

مراودة الحياة الواقعية والحسّية، ما استتبعه من تأثم الفنان من تناولهم وعرضهم في أعمالٍ فنية وأدبية، يمارسُ فيها هؤلاء القديسون حياة اعتيادية بشرية أخلاقية، تصلح أن تكون قدوة للعاديين من الناس، الذين يأكلون ويشربون، ويتزوجون، ويجتهدون، ويخطئون، ويتوبون.. وقد عبّر عن هذا السبب أحد ناقدي فكرة الأدب المسيحي حيث قال: «أما الذي ينقص المدهش الحديث (أي المسيحي) فهو أن يكون محموماً![٢] إن (الألوهة) لا تتغير في جوهرها وعبقرية الشعراء لا تعرف إلاّ أن تؤنسن الله، وهذا كفر أو غباوة، إن ملائكتنا وقديسينا هم خلّو من الأهواء... فإذا وصفناهم في حالة هدوئهم أو غبطتهم أصبحوا أشخاصاً باردين، وإذا منحناهم حركة القلب البشري الصاخبة ظهروا بمظهر غير لائق يخالف طبيعتهم»[٣].

وبعبارة أخرى فإن المثل الأعلى للإنسان النموذج في الأدب المسيحي كان (رجل الدين) المنعزل عن الحياة، البعيد عن الواقع، المتطهر من المادة، المتبرىء من ملابسة متاع الدنيا، المحتقر للدوافع والغرائز التي تتماوج في ذاته، بما يثبط إرادة الإنسان الملتصق بالحياة الدنيا عن محاولة التأسي بمثل هذا النموذج المتعالي الذي يبالغ في السموّ الروحي على حساب حظه المشروع من زينة الحياة.

ولقد كان للتجريدات الفلسفية الصارمة، التي فكّت العناق الأبدي بين قوى الإنسان الداخلية، دورٌ في إجبار الفكر الديني على عزل نفسه عن الحقيقة الشاملة، وحرمانه من منابعها، ووسائل الوصول إليها، فالحواس انحصر دورها في تبين معالم الطقوس الدينية، وحرمت من أداء رسالتها الحياتية والجمالية، والتوجهات العلمية حوربت باسم الدين، وشّكلت لدُعاتها المحاكم. أمّا العقل فإنه أصلاً لم يقبل الدخول إلى بوابة الهيكل الديني المسيحي (القلب) لإدمانه التفلسف والتجريد والجدل المنطقي البارد، رغم محاولات (باسكال) المتأخرة...، فكيف يقدر الفكر المسيحي على إنتاج أعمال فنية وهو يلغي أو يزدري كل هذه القوى الإنسانية الصميمة، الفعّالة ويحول بينها وبين تلوين ذلك الإنتاج؟.. وكيف يتذوق ويستسيغ الجمهور مثل ذلك الإنتاج الذي هو أشبه شيء بطقس ديني ما ورائي خالص، لا تشده خيوط واضحة إلى العقل، والحس، والعلم، والواقع، ولا مصدر له سوى ما سطّر في الكتب التاريخية والدينية من معجزات القديسين وعجائب أعمالهم؟

ثم إن التراث المسيحي قد خلا من صور المواجهة الدينية الفاعلة والإيجابية والشاملة مع المتألهين والمتحكمين في رقاب البشر ومصائرها وأفكارها ومواقفها، مما يجعل الأدب الديني المسيحي خالياً من النماذج (الواقعية - الأخلاقية) المجاهدة والمواجهة للشر، بمستوى من المسؤولية والإلتزام والإعداد، يكافىء صولته وجبروته، ولا ريب أن الجمهور لا يتعاطف مع أدب مثالي قصّيَ عن الواقع، أو خاضع لسلبياته، أو لا يرى فيه نفسه وأحاسيسه واهتماماته الواقعية، وتطلعاتها الماثلة، ولا تشدّه إليه روابط من النسب الحركي والإنتماء الجهادي. قد تكون هذه الأسباب أو أخرى غيرها فنية أو موضوعية وراء إخفاق الفكر المسيحي في إقامة بنيان أدبي ديني.

هذا العذاب الكبير

يواجه أدب المذهب الاتباعي التقليدي، المطّعم بالأساطير الوثنية المشدود إلى المعقولات الأرسطيّة.. ولكن أدباً إسلامياً معاصراً واعياً، مستمداً من التوجه الإسلامي الصحيح لن يمر على هذه الأشواك، ولن تدميه رؤوسها المدببة.

سيمدُّ جسوره مع الواقع والحياة على أعمدة التوحيد والعقلانية المسلمة، والواقعية الإيجابية، والأخلاقية القائمة على ثبات القيم ومرونة الاجتهاد في تفسيرها وتنفيذها، والتوازنية في النظر إلى قوى الإنسان الداخلية.. كما أن التأريخ الإسلامي حافل بالصور واللقطات، والمواقف القيادية والفردية الملتزمة، والمواجهات الحارة والدامية مع الباطل، والتجارب الاجتماعية الثرة العميقة الغنيّة بالرؤى والقيم النبيلة، والعطاءات الروحية الثرية، التي من شأنها جميعاً أن تمد هذا الأدب بمادة طيبة ومؤثرة، فيكتسب كل سمات التأثير في الواقع الإسلامي الاجتماعي العريض. ذلك العقل الإسلامي الواسع الممتد المصوغ وفق الرؤية الإسلامية المبصرة بأحداق الوحي الصادق، التي توزع الأضواء والظلال على عوالم الفكر والنفس والعاطفة من السقوط في التهافت والهبائية والتطاير، إذ أن عواطف (الرومانسيّين) لم تثبت على قرار من العقل الحكيم، أو الوحي الأمين أو العلم المبين، فهوت إلى قرار سحيق، وانقلبت في نفوسهم عذاباً وحسرة، وخلقت في عقول جمهورهم وأرواحهم ريبة وشكاً، وضلالاً وأسىً مستديماً، وحتى كان بوسع العاطفة تسويغ آلام الإنسان وترضيه بتحمّل أعباء الكدّ والجهاد الناشط، إنما ذلك بوسع المنهج الديني العلمي الصحيح المتمثل في الإسلام، وكيف يقبل العقل الانسياق وراء سراب العواطف الهائمة، الخارجة عن سياق العقلانية الرشيدة، والحكمة السديدة، والحقائق الدينية النقية؟ ولا بدّ للعاطفة الممعنة في الانثيال السائل، والتخيل السادر، من علم يحدد وينظم جريانها ضمن ضفافه الآمنة. صحيح أن العاطفة هي الطاقة الباطنية، التي تنضج العمل الإبداعي الإسلامي، لكن العاطفة السائبة لا قيمة لها في الفن الإسلامي ولا حقّ لها في الإبحار وحدها، أنىّ شاء لها الهوى، كي لا تضلّ ولا تغرق فالعاطفة الإسلامية تتفاعل أولاً مع سائر قوى الإنسان الأخرى الداخلية، ثم يحق لها أن تتسرب ضمن قنوات هادفة ومعقولة ومعلومة، لا بالنظرة الفلسفية العقلية التي لا تؤمن إلاّ بالمقررات العقلية المألوفة القابلة للتغيير أو بالنظريات العلمانية القاصرة، التي لا تثق إلاّ بعلوم الحواس والتجارب المادية بل بالعقل الإسلامي العلمي الغائي، الذي يتعامل مع الوجود في حالته الشاملة الموحدة، ويحتك بالحقيقة في صورتها الكاملة، سواء في وجهتها المنزلة، أو في وجهها المكتشف بجهد الإنسان المادي والروحي، لا كما يتعامل غيره معها وهي مفككة، مجزأة الأوصال، عديمة الروح، يتقاسمها المدرسيّون من الفلاسفة،

كثرة التهاويل والخوارق والطقوس حرمت الأدب الغربي من أداء رسالته في الحياة.

الوضعيّون، والتجريبيون، والماديون، كل قد وضع جزءاً منها على رأسه، بلا حياة تكاملية، متناغمة، مضيئة..، أوصال وأشلاء، عقل، وعاطفة، وروح، وخيال، إنه تفكيك للحقيقة يذهب ببهائها ونضارتها وحيويتها، إن كان مجدياً لأغراض الدراسة والبحث، فإنه لا يغني شيئاً في عملية الإبداع، الصادرة من التعامل الإنساني الشامل الحي مع الحياة والحقيقة، الإسلام هو الذي يعيد شد هذه التفاريق والمواد البنيوية، ويطلقها في طريق البناء الفني الهادف، عبر محطات الشوق والولع الإنساني، باكتناه جماليات الحقيقة وجوهرها وصياغتها في أعمال فنية ناضجة خالدة.

الهوامش

(١) يس (٦٨).

(٢-٣) فان تيغم/ المذاهب الأدبية الكبرى ص١٥٦.